مرحلة من مراحل التطور السياسى والاجتماعى فى السودان

فى مطلع القرن التاسع عشر بلغ المجتمع السودانى فى تطوره الحضارى بوجه عام مرحلة الرعى ، ولم يجاوزها إلى مرحلة الزراعة المنظمة الدائمة إلا بعد مدة معينة . ومرد ذلك أحوال طبيعية وأخرى بشرية، منها : قلة الماء، وندرة التربة الصالحة للزراعة ، وعدم توفر النبات البرى الصالح للرعى . هذه العوامل أدت إلى الانتقال من مرحلة الصيد إلى الرعى ، مختلطاً بالقليل من الزراعة وما يتصل بها من الحرف البدائية . ورغم كثرة التغيرات البشرية التى طرأت على السكان منذئذ ، لم تتطور أساليب الإنتاج الاقتصادى إلا قليلا ، ولم تتسع دائرة العمل ونوعه . ولعل سبب ذلك أن المجتمع السودانى لم يتح له شىء من الدوافع الذاتية أو الخارجية الكفيلة بخلق الحركة فى المجتمعات ، وتوجيهها إلى أساليب وأهداف اقتصادية جديدة . حتى التوغل العربى فى السودان كان أثره قاصراً فى هذا المجال على تثبيت مهنة الرعى فى المجتمع ، بسبب تشابه ظروفه القائمة مع ظروف الموطن العربى الأصيل . ووسط غلبة المؤثرات العربية وظهور قيادات جديدة فيها الدم العربى منذ أوائل القرن الثالث عشر ،أصبح الهدف الأمثل فى المجتمع السودانى بوجه عام هو التقرب إلى الأرومة العربية والتمثل بالحياة العربية البدوية . فظل طابع الحياة العام فى السودان استمراراً للطابع السودانى العريق ولطابع الحياة العربية البدوية ، أى طابع الرعى وتربية الحيوان .

لذلك كان الرعى قبيل الفتح المصرى هو الحرفة الرئيسية للأكثرية الغالبة من السكان ،الذين نزلوا البادية . وهوامش الحضر . وكان أكثر هؤلاء البدو من العرب ، أو المستعربين الذين اكتسحوا اقليم دنقلة وتبعوا مجرى النهر أو

اتجهوا نحو كردفان ، مسيطرين على صحراء بيوضه ، غير تاركين للشايقية سوى مكان ضيق بين دنقلة وكورتى . وشارك بعضهم البيجاه فى مواطنهم فى التاكه وما صلح من البطانه ، ولم يتركوا لهم وطناً خالصاً عدا المرتفعات المطلة على البحر الأحمر . وخالط بعضهم الزنوج فى أطراف غابات الجزيرة وأحراشها . وأحاط البعض الآخر بالنوبة فى معتصماتهم فوق الجبال .

وكان للعوامل الطبيعية أكبر الأثر فى تحديد مواضع المراعى وقيمتها الغذائية ، وفى تخصيص بعضها للإبل والبعض الآخر للبقر ، وفى أثر نبت المرعى فى الحيوان . فرعاة الصحراء الواسعة كانوا لا يجدون المرعى والمروى دائماً فى مكان قريب من الحى . وهناك أخطار مختلفة كانت تهدد الحيوان ، والإنسان أحياناً ، بالهلاك ؛ فمراعى شرق السودان طالما تعرضت لغزو الجراد ، كما وقع عام ١٨١٣ ، ولحق حيوان الشرق بسببه كثيراً من الأذى . أما حيوان مرعى جزيرة سنار فكان يقاسى من وخم الهواء وانتشار الوباء فى أعقاب المطر كل عام فلا يعيش طويلا بعد موسمه رغم الاحتياط بنقله إلى الأراضى الرملية البعيدة عن موطن الوباء . وتحددت مواطن رعاة الإبل بين خطى عرض ١٨ و ١٣ شمالا تقريباً وذلك لأن المنطقة الواقعة شمال خط عرض ٤٠ و ١٧ شمالا تقريباً — كما لاحظ كايو — كانت لا تتلقى كمية من المطر تكفى لضمان المرعى ، بينما عاث فساداً فى جنوب خط عرض ١٣ شمالا ذباب السرت الناشر لمرض الغفر بين الإبل والخيل ، وكان يهلكها بعد أيام قليلة . ولما كثرت ضحايا هـذا المرض من إبل الرعاة العرب فى كردفان وخيلهم ، لم يجدوا حلا سوى تحديد مجال حركاتهم وكادوا يتحولون نهائياً عن رعى الإبل إلى البقر (وهم البقارة) . كذلك تعرضت ماشية التاكة وسنار لهجمات الوحوش المفترسة التى ألحقت بها خسائر جمة . وهناك متاعب ناشئة عن عوامل طبيعية . فكان من اليسير أن يفجأ « الهبوب » ، أى الأعصار ،القطيع فتفك افراده أعقالها وتشرد ، وقد يكون هذا أحياناً إلى غير عودة . والمراعى المعتمدة على المياه الجوفية كانت دون شك تتأثر بانخفاض مستوى النيل وفيضانه القليل ، وهو أمر كان يحدث فى فترات متباعدة أحياناً، متقاربة أحياناً أخرى . وكل هذه المصاعب تحيفت من

المراعى وحددت نوع حيوان الرعى فى الأقاليم المختلفة وضاعفت من فقر البيئة بوجه عام . بل انها أثرت أحياناً فى نبات المرعى وبالتالى فى حجم الحيوان بصورة لم تكن متوقعة . لاحظ بوركارت أن حيوان التاكة كانت ممتلئة وقوية وقيل له أن ذلك راجع لرعيها فسائل جيدة من السنط ، وكذلك كانت قرب شندى لتوفر الماء والمرعى . بينما كانت الإبل فى رقعة مجاورة للتاكة — هى رقعة سواكن — ضعيفة هزيلة بسبب زيادة ملوحة التربة وأثر نسائم البحر فى اضعاف النبات الذى كانت تتغذى عليه هذه الإبل،إذ سودت النسائم فروع الأشجار وأحالتها إلى ما يشبه الفحوم . وبالمثل يمكن تعليل ضعف الإبل قرب سنار — وهو أمر لاحظه كايو — إلى رعيها فى أطراف الغابات المنعزلة . ومع هذا قيل لبوركارت أن الحيوان كان يزداد امتلاءاً كلما صعد جنوباً لتوافر الماء والمرعى .

وبجانب ذلك كان للعامل البشرى الدخل الأكبر فى اختيار الحيوان وفى وضع نظم للرعى . فكان الجمل — الذى دخل السودان من أزمان بعيدة — هو أثمن الحيوانات الأليفة عند العرب والمستعربين حتى فى سنار . بينما بقى البقر هو الحيوان المفضل عند الزنوج فى الجنوب هم ومن اتصل بهم . عرف الأولون للجمل مزاياه الفريدة الملائمة للحياة فى الصحراء وما يشبهها ، فبذلوا فى تربيته ورعايته عناية كبيرة موصولة جيلا بعد جيل ، ونتج عن هذا الاهتمام التقليدى لرعى الإبل وتربيتها وتدريبها ان تكونت بيئات فنية بين رعاة الإبل وظهر لون من التخصص فى هذه البيئات ، فحذقت كل منها تربية سلالة معينة من الإبل تمتاز بخاصة من الخواص مثل القدرة على حمل الأثقال أو سرعة الركض أوسهولة التكيف للقتال . ومن الملحوظ أن تدريب الإبل فى السودان — أو الاشتهار به على الأقل — انتقل من العرب إلى البجاه . ولكن اهتمام البدو العرب بإنتاج الإبل القوية لم يفتر ، ولذلك حرصوا على تلقيح نياقهم من بكور ذاع عنها القوة أو السرعة . وكان بعضهم يسافر بنوقه شهوراً لهذا الغرض . وكانت الثمرة الطبيعية لهذا الاهتمام الفذ برعى الإبل وتربيتها أن كثرت الإبل فى جميع أنحاء البادية السودانية .

كان يلى الإبل أهمية وكثرة عند الرعاة ، البقر فالأغنام والماعز ، ثم الجاموس بقلة . ومن المرجح أن العرب أخذوا عن الوطنيين رعى البقر. ولذلك ربيت الإبل والبقر معاً سواء فى الشرق والغرب . وكاد البقارة فى كردفان يتحولون إلى رعى البقر وحده كما رأينا . على أى حال ربى الرعاة سلالة من البقر أليفة خفيفة ذات حجم متوسط وسنام من الدهن ، أشبهت ملامحها مثيلاتها فى النقوش المرسومة على لوحات القتال التى تغطى جدران بعض المعابد المصرية القديمة . فهى إذن سلالة عريقة ربوها بقصد الانتفاع بألبانها ولحومها . ولعل بعض بدو كردفان استخدموها فى ذلك الوقت للركوب وللنقل . أما الأغنام — وبخاصة فى بربر — فكان لا يكسوها صوف بل وبر رفيع كوبر الماعز ، وربيت من أجل لحومها بصفة أساسية .

وفى مناطق تربية الإبل شاعت تربية الخيل كذلك . لأن السودانيين — عرباً وفونجاً وبجاة — اعتزوا بها ، واستكثر سراتهم منها وتباروا فى اقتنائها . ومن أمثالهم السائرة ما يوصى بالاحتفال بها وترجى الثروة من تربيتها : « الخيل ظهورها عز ، وبطونها كنز » . وأظن أن هذا المثل يرجع إلى القرن الثامن عشر إن لم يكن قبله ، فقد روى عن اسماعيل الدقلاشى — أحد الأولياء — ما يشبهه فى القرن الثامن عشر مشيباً بمحبوبته هيبه :

مهرة الضنقلاوى والمكنوز ظهرها يعافا المورود الداخل كجرها

وفى هذا التعبير الأدبى الجميل تنويه كذلك بسلالة الخيل العربية الأصل التى اشتهر بتربيتها أهل دنقلة ، والتى كان يضرب بها المثل فى الجمال الباهر وشدة الوثاق وصلابة العظام وامتلاء المناكب والحجل . والحجل كان مرغوباً بصفة خاصة فى الخيل ومن أقوالهم فيه : « غرة بلا حجل إما تقصير أجل أو موتاً بالعجل » . ويستخلص مما ذكره كايو عن الحجل أنه كان فى نظرهم دليلا على سلامة الجواد من المرض . وكل هذه الميراث التى ذكرناها جعلت دنقلة فى ذلك الوقت فى مقدمة أسواق الخيل الناشطة فى السودان ، ومنها استمد

المماليك بعد استيطانهم الأقليم عدداً وفيراً من كرام الخيل ، وكذلك فعل الشايقية والمريفات فى بربر وسنار . ولم تكن الخيل الجميلة متوفرة فى دنقلة فحسب بل كانت كثيرة كذلك عند بدو كردفان .

نظام البداوة :

ونظام الرعى نظام بسيط فى هيكله العام . يتلخص فى خروج الرعاة بالماشية إلى المرعى والمروى أينما كان ، فى صحبة الكلاب عادة لحراسة القطيع . ومتى شبع الحيوان وارتوى عاد به الرعاة إلى المخيم . ولم تكن المسألة سهلة دائماً ، بل كان الرعاة يواجهون المتاعب المختلفة الناشئة عن ظروف طبيعية مختلفة كما رأينا . ولكن المشكلة الرئيسية التى واجهت كل الرعاة كانت واحدة فى طبيعتها ؛ وهى البحث عن مرعى طيب وماء كاف لسقى الحيوان . وتلك مشكلة كانت يسيرة الحل فى موسم الفيضان حين كان الماء مبذولا فى كل حوض النهر تقريباً . أما فى الشتاء والربيع فكان الرعاة يستمدون الماء اللازم للحيوان من حفر عميقة أو من آبار حفروها فى مواضع متفرقة لتتجمع فيها مياه المطر الهابطة من المرتفعات مدة من السنة أو للحصول على بعض المياه الجوفية . وأقام بعضهم حول بعض المجموعات المتقاربة من هذه الآبار أحواضاً من الطين لسقى الماشية كان الرعاة يتوافدون عليها بقطعانهم طول اليوم . ولكن هذه الحفر والآبار قصرت عن تزويد الرعاة بالماء فى كل وقت ، وتفاوتت كميات المياه الممكن استخراجها منها . ولذلك لم يكن بوسع الرعاة الاعتماد على آبار بعينها ، بل اضطروا إلى التنقل من بئر إلى أخرى ، أى من موضع إلى آخر ، بحثاً عن الماء . وهذا ما يسمى بالظعن أو البداوة .

كان للرعاة إذن نظام بداوة ، ذكر بوركارت من وجوهه وجهان : أحدهما يومى بين الصباح والمساء ، والآخر موسمى . فخلال موسم المطر كانوا يهبطون من الجبال إلى السهول بين عطبرة والنيل لوفرة المراعى ، وفى الصيف يفرون من السهول الجافة المعرضة لأشعة الشمس المحرقة إلى الجبال المرتفعة

حيث العيون أكثر ماء والمرعى أطيب مورداً . وحركاتهم ، سواء كانت يومية أو موسمية ، كانت تتصف بكل خصائص النظم الاجتماعية . فهى حلول دائمة وفقت إليها الجماعة لمواجهة مشاكلها المتكررة ، وتميزت بالمرونة حسب مقتضيات الأحوال . وكانت الحركات الموسمية للرعاة تشغل مناطق واسعة متفرقة من البادية السودانية ، ولكل منها اتجاه دائرى يختلف عن غيره وتحدده المواضع المتغيرة للمراعى الصالحة فى الفصول المختلفة من السنة . فى الصيف كان بعض الرعاة البجاة وجيرانهم فى منطقة سواكن يتجهون شرقاً من سهول التاكة والبطانة إلى الجبال ، بينما يقوم رعاة البشارية فى منطقة عطبرة بحركة هجرة محدودة متجهين غرباً نحو النيل لقلة آبارهم أو إلى ضفاف عطبرة لإطعام مواشيهم الحشائش النابتة على حافة مجرى النهر ، وتعاد ماشية بربر من جبال البشارية إلى حقول أصحابها لترعى ما تبقى فيها من أوراق الذرة وسيقانها الجافة ، وتتحرك قبائل البقارة فى كردفان نحو سهول الجنوب قرب جبال النوبا . فاذا جاء موسم المطر انحدر بعض رعاة البجاة والتاكة بقطعانهم من الجبال إلى السهول ، وأعيدت ماشية بربر وقوزرجب مع رعاتها البشارية إلى الصحراء وإلى مراعى البشارية فى الجبال ، وغادر البقارة المصيف — بعد تحوله إلى برك ومستنقعات موبوءة بالذباب — إلى أوطانهم ثم جاوزوها إلى السهول الجافة فى الشمال ، وفعل أهل سنار مثل ذلك بعد انقضاء سبتمبر واكتوبر وريفهما الريان الضاحك . ومتى حل الربيع تحول رعاة سواكن والتاكة إلى السهول .

وهناك نوع ثالث من الهجرات الجماعية اشترك فى القيام به الرعاة والحضر ، هو النجيع الذى كان يحدث فراراً من وباء الجدري الفتاك أو تخلصاً من وطأة الجدب كلما انخفض النيل . ومن أمثلته نجوع سنة الجدرى وأم لحم وأم حنيضل — وكلها وقعت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . وأسماؤها لا تحتاج إلى تعليق فى الدلالة على شدة وطأة الكارثة التى دفعت إلى كل منها ، وقد ظلت هذه الكوارث حية فى أذهان بعضهم عشرات السنين فأرخوا بها

أحداثهم . وقد أشار إليها ود ضيف الله فى طبقاته ، ونقل وصف أبيه لأولها بقوله : « فلما أصبحوا قاموا مسافرين .. وقد سدوا وجه الحلة بالرقيق والبعير والبقر والشياه . والشيخ (الولى وشرف الدين ولد برى) ركب قدام النجيع كأن وجهه قطعة قمر .. » .

هذا الطابع العام المشترك الذى وصفناه للوجوه المختلفة لنظام البداوة كان يغطى فروقاً فى الكم والسعة بين حركة وأخرى . فلم تكن كل حركات البداوة ذات مسافات واحدة أو ذات سعة واحدة أو حتى متماثلة . كان بعضها — مثل حركة البقارة — حركة ضخمة تتحرك فيها القبيلة بكل قطعانها ومخيماتها ، والبعض الآخر مثل حركات البشاريين — حركات محدودة لجماعات صغيرة من بعض العائلات . وكانت تحدد سعة كل حركة ظروفها وما يتعلق منها بالمهجر بصفة خاصة مثل اختلاف سعة المراعى ومدى طول الفصل المطير وانتظام سقوط المطر وما إلى ذلك .

من هذا الوصف يتبين أن نظام البداوة كان أبرز ظاهرة فى النظم البشرية للرعاة . جموع هائلة من صنوف الحيوان ، من الإبل والبقر والخيل والأغنام والماعز والكلاب الحارسة ، وأسر بأكملها أو قبيلة أو بعض قبيلة ، تتحرك عبر الصحراء والوديان والسهول وتصعد فى الجبال أو تنحدر منها ، وقد تشارف المدن القليلة المستوحشة ، فى اتجاه واحد أو فى مناطق متقاربة ، آمنة متباطئة حيناً بحثاً عن الماء والقوت ، أو وجلة مهرولة حيناً آخر هرباً من الوباء ، آتية فى الحالين على ما يقابلها من خضرة وماء ، ومحدثة من الثغاء والرغاء والمواء والصهيل والنباح والصراخ ما يحيل سكون الصحراء ضجة وصخباً ، ومنتقلة بخيامها وبمشاكلها اليومية المألوفة ، ومقيمة مع من تلقاه فى المهجر صلات ود وألفة قد تنتهى بعقد مصاهرات بين المهاجرين والقاعدين ، أو مثيرة نفرة وخصومة قد يؤديان إلى الشحناء وإراقة الدماء . وبين هذا وذلك تتفق الآراء أو تختلف ، وتتفرق البطون المتآخية أو يتحالف البعض مع قبائل أخرى ، فتضعف بطون وينبه شأن بطون ، وتظهر قيادات جديدة تغير تاريخ القبيلة وتفتح فيه صفحات جديدة ، ويكثر

النماء والخير ويمتلىء الحيوان بالشحم واللحم ويجرى اللبن فى الضروع الضامرة ، ويعمر السامر إلى حين ثم ينفض . . وهكذا إلى عودة .

نظم الملكية :

وإذا نزلت جماعة من الرعاة أرضاً واتخذتها موطناً بسطت عليها حقوق السيادة والملكية الجماعية . ومدت دعوى هذه الملكية إلى ما بالأرض من آبار ومراع وما يخترقها من طرق . ولم تسمح راضية لغير أبنائها أو حلفائها بالرعى فى هذه الأرض أو السقى من آبارها أو سلوك طرقها إلا بعد استئذاء أتاوة معلومة . ولاتنزل عن هذه الحقوق إلا راغمة بعد قتال خاسر أو ثمناً لمعونة ضد طرف ثالث . ونتيجة لهذه الظروف وأشباهها تغيرت الحدود المتميعة لأوطان الجماعات القبلية البدوية من وقت لآخر .

وبجانب الحرص على حماية ملكية المراعى والآبار خاصة ، اهتم الرعاة بحماية ملكيتهم للحيوان . فاتبعوا نظام الوشم . وبموجبه اتخذت بعض جماعاتهم شارات خاصة مميزة كانت الإبل والماشية توشم بها للاستدلال عليها ان شردت أو سرقت .

القيمة الاقتصادية لنظم الرعى :

زود هذا النظام الرعاة بقدر كبير من حاجاتهم الأساسية من غذاء وكساء ومأوى وواسطة للنقل ومادة للتطيب والتنظيف ، ومال للمقايضة أو الاستثمار بصور أخرى ، وأداة لتقويم السلع الأخرى . واستخدم الحيوان فى العمل الزراعى فى حالات محدودة .

فيما يخص الغذاء . كانت أهم منتجات حيوان الرعى فى السودان هى الألبان واللحوم . ومن الرعاة من كان يقتصر على أولاهما أو على كليهما فى طعامه مختاراً أو مضطراً إبان الجدب أو كوارث الوباء أو حين كان الجراد يغزو البلاد . وكان اللبن بصوره المختلفة — حليباً أو رائباً أو زبداً — مرغوباً ووفيراً . وكان يضاف إلى كل طعام تقريباً . ويقال حينئذ أن الطعام ملح باللبن أى أصبح مليحاً به .

وبسبب توفر لحوم الإبل والبقر والماشية الصغيرة كان السودانيون بعامة يحبون تناول اللحوم بانتظام وبعضهم كان يرغبها كل يوم .

من ناحية أخرى نسج الرعاة أخبيتهم من صوف الغنم أو وبر الإبل والماعز ، وصنعها بعضهم من جلود الماشية . واتخذ كثير من نساء التاكة مبادع من جلود الحيوان . بينما اكتفت الفتيات فى كثير من الأقاليم بارتداء الرهط المصنوع من سيور جلدية حول أوساطهن . واستخدم السكان جلود الحيوان ووبره فى صنع أشرطة وحشايا لتغطية العنقريب ، كما اتخذوا فراء الغنم فراشاً . واستعانوا بالزبد وبدهن الإبل لتدليك الجسم ولدهن الشعر أو صبغ الوجه تجملا . ومن باب الاقتصاد استعمل البدو فى بربر الروث الجاف بدل الصابون النادر الغالى الثمن لتنظيف الأقمشة القليلة القيمة .

ولعبت الإبل والخيل دوراً هاماً فى حياة القوم بوصفها وسائط للنقل فى السلم والحرب . وكان البدو العرب فى البلاد الغربية يركبون الجياد وحدها . وبالمثل كان ثراة السودانيين فى بلاد النيل والشرق يفضلون امتطاءها فى تنقلاتهم. كما كان شجعانهم يركبونها ويفجأون بها العدو . وكانت مقاتلات الفرسان هى التى تقرر فى الأعم الأغلب مصائر معارك الشليقية وأهل بربر وسنار.

وحيوان الرعى ومنتجاته بعد ذلك سلع تجارية كانت موضوع المبادلات بين البدو وأهل الحضر ، ومثلت نسبة طيبة من التجارة الخارجية للسودان . وحل البقر فى حالات كثيرة محل النقود إذ كانت تسدد به مهور العرائس وديات القتلى ، وأصبح وسيلة لتقويم أثمان السلع الأخرى الغالية نسبياً ، ولتقدير الثروة الفردية أحياناً .

لا غرو إذن أن أصبح لحيوان الرعى مكانة عزيزة فى نفوس الرعاة فأحسنوا معاملته . كانوا يرون أن « ظلم البهائم حرام » ، وهذا القول من أمثالهم السائرة ، وتحاشوا فصل حوار الضأن أو الإبل عن أمه فى سن الرضاع . ودرسوا مزاج الإبل فعرفوا بحبها للنغم ولذلك لم يبخلوا عليها بالأجراس الصغيرة يثبتونها فى أعنتها وأرسانها ، وآنسوها بالحدو الشجى وبخاصة فى سرى الليل ، وتفننوا

فى ذلك حتى أصبح من أبواب أغانيهم الحافلة باب خاص بالحدو ــ أو الحداء ــ يعرف بغناء النعم .

الآثار الاجتماعية لنظام الرعى :

مع هذا يمكن القول أن نظام الرعى لم يحقق لكافة المشتغلين به من بدو السودان قدراً مناسباً من الرفاهية يطمئنون معه إلى حياتهم ويرضون عنها فيكتفون به عما عداه . مع اتساع الصحراء وجدبها وعدم كفاية المراعى لم ينتج نظام الرعى قوتاً كافياً لعدد من السكان يملأ رحاب السودان الفسيحة . فكان من الآثار المباشرة لنظام الرعى قلة السكان وتفرقهم إلى جماعات صغيرة العدد متركزة فى مواطن متباعدة . وفى ظل هذا الوضع قل العمران بطبيعة الحال . وكلا الأمرين لفت أنظار الرحالة المختلفين الذين زاروا البلاد .

وحتى هذا العدد الضئيل نسبياً من الرعاة كان لا يحصل دائماً على قوته بسهولة ، بل اضطر فى سبيله إلى تحمل العناء والمكابدة . فأصبحت الهجرة من الأوطان إلى أمد أو إلى غير عودة شيئاً مألوفاً ، ولم يعرف السودانيون بعامة الالتصاق الشديد برقعة محدودة من الأرض كما عرفه فلاحو مصر . كذلك أصبح التنافس على المراعى وعلى المياه أمراً عادياً ، وكثيراً ما نشأت بين القبائل المتجاورة عداوات تقليدية بسببه . فالبشاريون مثلا كانوا أعداء الهدندوة والأمأرأر والعبابدة . وهؤلاء الأخيرون كانوا يكرهون أيضاً الرباطاب . والشليقية كانوا خصوم السابقين وخصوم الدناقلة وجعلي شندى على السواء . وكذلك كان بين البطاحين والشكرية فى البطانة عداوة موروثة لم تنج من نارها حتى تاجوج أجمل نساء عصرها . ووسط هذا السباق الجماعى المستمر الذى فرضه نظام الرعى فى بيئة جدبة فشل سكانها فى خلق نظام تعاونى مثمر للانتفاع معاً بالمياه وبالمراعى فى أنحاء الوطن الواسعة ، كما فشل حكامها فى بسط الأمن والنظام ، كان من المستحيل على أى فرد ــ مهما بلغت قوته أو ثروته ــ أن يقف وحيداً . فاستمر النظام القبلى بكل خصائصه قائماً فى البادية السودانية وقوياً .

وخليق بالتقدير والإعجاب أن هذه الظروف لم تغير من طبيعة البدو الرعاة

أو تسلبهم فضائلهم المعروفة ، وعلى رأسها الكرم . فلم يقبل أحد فى البادية فكرة ذبح الحيوان لبيع لحمه ، بل ظل من التقاليد الراسخة فى المجتمع البدوي الرعوى تقديم اللحم « كرامة » للضيف وللوافدين أثناء الاحتفال بالمناسبات الدينية مثل موالد الأولياء أوتنصيب الخلفاء أو إقامة الأذكار(أوالاحتفالات الشخصية كالاحتفال بالزواج أو بميلاد طفل أو تسميته أو فى مناسبات الوفاة أو بناء دار جديدة أو الاتفاق على عمل) . والأخبار التى أوردها ود ضيف الله ضمن تراجمه حافلة بصور الكرم ، ومن أبرزها ذبح الحيوان للضيف. ومن ألطف ما قرأت فى باب الكرم أن ملك تقلى كان يحارب أحد ملوك سنار بالنهار و يرسل إليه االضيافة بالليل حرصاً على التقاليد الجميلة . ولم تكن نفس المضيف تستريح إن لم يذبح لأضيافه .

المهن الأخرى للبدو :

هذه الظروف كلها — مضافاً إليها تدهور سلطة الحكومة المركزية فى سنار — أغرت البدو باتخاذ مهن أخرى كان فى مقدمتها الغزو (وقد يسمى الخرط) الذي أصبح المهنة القومية الثانية فى البادية . ومع ذلك لم تكن حرفة الغزو فى كل الأحوال مناسبة لجميع البدو أو مجزية لهم . ولذلك اتجه عدد منهم إلى مهن أخرى يرتزقون منها ؛ التحق بعضهم مثلا بخدمة الحكام أو قام بدلالة الطريق للمسافرين ، أو نقل المتاجر أو أجر إبله للغير ، أو اشتغل بالتعدين أو الصيد . حتى الزراعة — وهى المهنة الكريهة عند البدو — حظيت بإقبال غير عادى فى البادية السودانية .

حسين كامل أبو اللبف